

## نظام الجماعة بتوات وأدواره الحضارية

من خلال مخطوط نوازل غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل. للشيخ

محمد عبد العزيز البلبالي (ت. 1261هـ/ 1845م)

The community system in T<sup>\*</sup>ouat and its civilizational roles, According to the manuscript entitled in «Ghonyat el-Moktassid el-sa'il fi ma halla fi bi-touat min el-kadaya wa el-masail» of Sheikh Mohammed ABDELAZIZ ALBIBALI (d. 1261 AH/ 1845 AD)

عبد الكريم طموز

جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري

m.abde.k37@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/02/21

تاريخ الاستلام: 2019/10/14

ملخص:

إذا كان إقليم توات من البلدان التي لم تعرف تبعية سياسية واضحة المعالم لسلطة من السُلط التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب العربي، وقد يكون ذلك راجعا لبعدها الإقليم عن عواصم السلاطين والأمراء والملوك أو لغيرها من الأسباب، فهل كان هناك نظاما ما ملأ هذا الفراغ السلطوي وسهر على سياسة المجتمعات وتجنّبها الفوضى؟ هذا ما سيتضح لنا بعد رصد وجمع الأسئلة والأجوبة التي لها العلاقة بتنظيم المجتمع ورعاية مصالحه الواردة في مخطوط غنية المقتصد السائل فيما حلّ بتوات من القضايا والمسائل، الذي جمع نوازل ومسائل وقعت بتوات وأجوبة علماء توات عليها، وبعد الرصد والإستقراء والتحليل؛ تبين أن أعيان القصور والقرى سَدّت مسدّ الحاكم وتولّت تسيير قضايا المجتمع، فأفرز هذا نظاما تقليديا يصطلح عليه بنظام الجماعة. جاء المقال محدّدا وموضّحا مفهوم وشكل وآليات وقوانين هذا النظام، وإيجاباته وسلبياته، والأدوار الحضارية التي قام بها في المجال الاجتماعي والأمني والاقتصادي والثقافي عبر نواحي إقليم توات. الكلمات المفتاحية: نوازل. نظام الجماعة. توات. القصر. أعيان البلد. قانون. العرف. عقوبة. غرامة.

#### Abstract :

The study aims to show the definition and the importance of «Nidham al-jamaa». The community system: According to the manuscript entitled in «Ghonyat el-Moktassid el-sa'il fi ma halla fi bi-touat min el-kadaya wa el-masail» which gathered a lot of people religious questions over the region of Touat and their scholars answers.

Including the regulating relation with the society members. And protecting their interests, then I realized that the head-masters of castles and villages became the real rulers instead the central political

\* m.abde.k37@gmail.com عبد الكريم طموز.

authority in all over the field of the region of Touat. That was called «Nidham al-jamaa » The community system.

**Keywords:** Nawazil, Touat region, castl, tradition, Tax, the village elders.

#### مقدمة:

لاعتبارات مختلفة حوّل الوضع بتوات لأعيان القصور والقرى القيام على شؤون المجتمع، وأشارت كتب النوازل والمصنفات التي أرّخت لهذا الإقليم وترجمت لأعلامه في العصر الحديث إلى هذه الحقيقة التاريخية الحضارية، وأبرزت شكل هذه السلطة (الجماعة) ومهامها وخصائصها، وأنبأت عن دواعي ظهورها وإيجابياتها وسلبياتها.

ف نجد أن الجماعة في توات قد بسطت سلطانها على الساكنة، وجعلت لإحكام سلطانها من أجل تحقيق السلم والأمن والأمان وحماية القانون والحفاظ على استقرار المجتمع؛ ضوابط للحياة داخل القصر<sup>1</sup>، حيث تُنظّم هذه الضوابط الحياة أسريا واجتماعيا واقتصاديا وأمنيا، معتمدة في تحقيق ذلك على أعراف كآليات قانونية وردعية تجبر من تعدى ضوابط تنظيم المجتمع وقوانين العيش داخله؛ على الرجوع والتماشي مع نظام الحياة أو الهجرة، وبذلت الجماعة كذلك مجهودا جبارا لصد ما يمكن صدّه من الاعتداءات الخارجية المخربة للمجتمع التواتي بضرب استقراره بكل أنواعها، في وسط مضطرب تجوبه قبائل همجية دخلها يعتمد على الغزو والسلب.

وعليه؛ فلا تخفى أهمية رصد المسائل والفتاوى التي لها العلاقة بما يخص موضوع الجماعة، الواردة في كتاب نوازل غنية المقتصد السائل فيما حلّ بتوات من القضايا والمسائل، التي جمعت فتاوى جلّ أعلام توات خلال المدة الممتدة تقريبا ما بين 1100هـ/1688م. إلى 1261هـ/1845م، لجامعها الشيخ القاضي محمد عبد العزيز البلبلي (ت.1261هـ/1845م) إذ تؤرخ هذه الدراسة لجهود حضارية بذلها سكان توات في هذه الآونة في مجال النظم والسياسة، من خلال تشخيص مفهوم وشكل نظام الجماعة، والقوانين والأساليب التي كانت سببا في استقرار الحياة بكل أشكالها في هذا الإقليم الوعر بكل المقاييس؛ جغرافيا وأمنيا واجتماعيا واقتصاديا؛ فهو رقعة جغرافية شاسعة ذات مناخ وطقس صحراوي شديد الحرارة والبرودة، قوي الرياح قليل الأمطار والوديان، بعيدا بعدا مؤثرا عن مدن الشمال الإفريقي الكبرى وعواصم أنظمة المغرب العربي، ذا تركيبة اجتماعية متنوعة أصول الأجناس، قليل الأمن لمجاورته للكثير من القبائل البدوية والرحل ذوي العدد والشوكة.

فإذا كان هذا النظام إحدى الحقائق التاريخية والحضارية؛ فلا بد من أن تكون له مهام وأدوار حضارية، من خلالها حافظ على استقرار المجتمع التواتي اقتصاديا واجتماعيا، وتصنّى للمشاكل الداخلية والخارجية التي من

شأنها تثبتت شمل المجتمع وزعزعت أمنه، فحاولتُ استقراء هذه المهام والأدوار من خلال هذه الدراسة بناء على ما ورد من نوازل وفتاوى هذا الصدد، في مخطوط نوازل غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل، وكما أننا نجد لنظام الجماعة إيجابيات فليزمننا الإشارة إلى ما كان له من سلبيات، حيث أشرت لذلك قبل خاتمة هذه المباحثة من باب تقييم هذا الجهاز الإداري السياسي البسيط.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه الدراسة كقاعدة تمهيدية: التوقف مع الدواعي التي أدت لظهور نظام الجماعة وكيفية تبلوره، وذلك قبل تناول مفهوم نظام الجماعة بتوات وتعريفاته ونظائره وشكله وآلياته وقوانينه وممثليه، كما أترض قبل ذلك وبإيجاز؛ للتعريف بشخصية مؤلف هذه النوازل وبيئته توات التي تعتبر الإطار المكاني لموضوع المقال، بالإشارة إلى جغرافيتها وتاريخها وتركيبها الاجتماعية، مما يجعل القارئ أكثر انسجاماً مع موضوع المقال، وكذا اتوقف باختصار مع أهمية نوازل الغنية البلبالية عموماً في دراسة تاريخ وحضارة توات.

#### أ. توات (الإطار الجغرافي والأوضاع العامة)

إقليم توات: تعريف موجز: تتشكل توات، البيئة التي ولد ونشأ بها مؤلف الغنية، والوسط الجغرافي لموضوع المقال. من مجموعة كبيرة من واحات الصحراء الجزائرية بالجنوب الغربي، وهو عبارة عن قصور وقصبات وقرى ومدن تؤلف في مجموعها إقليم يتموقع بين سفوح الأطلس الجنوبي وبلاد السودان، يحدها من الشمال العرق الغربي وهضبة تادمايت التي تلتف حول جوانها هذه الواحات، ومن الجنوب هضبة موبدير، ويشكل واد الساوره الطريق التجاري لإقليم توات؛ وتقع المنطقة بين خطي طول 4° غرباً إلى 1° شرقاً وبين خطي عرض 26° 30' شمالاً، ينقسم إقليم توات إلى ثلاث مناطق هي: تنجورارين أو ما يعرف بقورارة وتوات الوسطى وتيدكلت<sup>2</sup>. وهي أرض ذات سباح كثيرة الرمال والرياح، لا تحيط بها جبال ولا أشجار<sup>3</sup>. مما يقوله ابن خلدون عن توات. في عصره. أنها قطر يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وانهار، وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رياستها<sup>4</sup>. وهو أي قطر توات. محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد<sup>5</sup>.

وتتجلى أهمية هذا الإقليم من حيث أنه؛ أوسع وطننا وأفسح مجالاً وأقرب للسودان اتصالاً وجواراً، وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أمماً وأفسحها خطة، انتظم عرانه واتصلت قصوره وتراصفت نخيله على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر<sup>6</sup>.

لم يكن على توات عامل لأي حاكم من حكام دول الشمال الإفريقي فلضعف همّهم وقوتهم لم يستطيعوا ضمّهم، مع علمهم بأهميتها<sup>7</sup>. لا في العصر الحديث ولا الوسيط قبله، والمقصود بذلك عاملا بالشكل الرسمي والكامل الذي يكون عليه العمّال والوّلالة النائين عن الحكّام في سائر الأقطار، ولأهمية إقليم توات وطمع السّلت الحاكمة والأنظمة المتعاقبة على الشمال الإفريقي في ضمه وبسبب قيام الدول وسقوطها؛ عرف إقليم توات الكثير من التقلبات والتغيرات، ووجد أهل توات أنفسهم مضطرين لضبط الموازين الشرعية وإيجاد المخرج من المشاكل التي كانت تعيشها؛ فوسعوا سلطة القضاة وجعلوا رؤساء القبائل أهلا للحل والعقد، فحكموا البلاد بنصوص الشّرع الثابتة وأسقطوا عن الناس الضرائب والإتاوات وتمتّع شيخ القبيلة بالسلطة وكانت أحكامه ملزمة<sup>8</sup>.

تشكيلة المجتمع التواتي وبعض مميزاتة: حتى يتسنى للقارئ استقراء أثر النفوذ القبلي وجودا وانعداماً في تأسيس نظام الجماعة وتسييره، نلقي الضوء على التشكيلة العرقية أو الجنسية للمجتمع التواتي، بالإشارة وباختصار الى الفئات العرقية والقبائل المشكلة له، وأهم ما يميز التجمع البشري بتوات. فنجد أن المجتمع التواتي قد تشكّل قبل هذه الآونة المدروسة وعبر مراحل العصر الوسيط من فئات عرقية ثلاثة، شأنه في ذلك شأن سائر أقطار المغرب الإسلامي شماله وصحراؤه، وقد تحدثت المصادر الفرنسية المختلفة عن نوعية السكان وعناصره المختلفة، وتداخل هذه العناصر في بنية اجتماعية مكونة من الأحرار والعبيد والنصف أحرار<sup>9</sup>. فكانت شرائح المجتمع التواتي والفئات العرقية المكونة له كما يلي: الفئة الأولى البربر: ساهمت شريحة البربر في تكوين وتشكيل المجتمع التواتي بجل القبائل البربرية؛ زناتة توارق وغيرهما.

الفئة الثانية العرب: ساهمت شريحة العرب في تكوين وتشكيل المجتمع التواتي بمعظم القبائل العربية المتواجدة بشمال إفريقيا.

الفئة الثالثة الزنوج: شارك الزنوج من بلدان ودول جنوب الصحراء الكبرى في تكوين المجتمع التواتي. ومما يميز توزّع هذه الفئات على نواحي وقصور توات أنك تجد في شماله نسبة القبائل البربرية أكثر من قبائل العرب، وفي جنوبه وشرقه تتغلب نسبة التواجد العربي، أما الزنوج فيتواجدون في سائر اقطار توات بنسب متقاربة.

وكما هو معروف ومقرر في عرف التواتيين فإن هرم فئات المجتمع كالتالي: رأسه الأشراف من آل البيت وهم الذين ينحدرون من سلالة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه وفاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، يليهم في الترتيب فئة المرابطين من سلالة آل البيت كالجعفرين والعباسيين مثلاً، ويلهم في الترتيب سلالة الانصار والفاطحين وسلالة العلماء ومشائخ التصوف، مثال ذلك التليلايون العثمانيون سلالة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه والبلباليون والكتتيون نسل الفاتح عقبة ابن نافع رضي الله عنه. ثم يليهم أهل المال والجاه من قبائل العرب والبربر، ثم سائر المجتمع من بيوت العرب والبربر، ثم الزواج.

ترجع الكلمة الأولى والأخيرة في أمور الحل والعقد في كل قصر من قصور توات أو قسبة من قصباتها للذين أسسوه مهما كان عرقهم أو قبيلتهم، وترجع الكلمة فيه كذلك لمن قدمه مؤسسو هذا القصر.

ومما يميز تجمعات توات؛ أنها ليست تجمعات مشابهة لتجمعات القبائل البدوية التي كانت تجمع كل شتاتها في موطن واحد، حتى أنه يتسنى باسمها ويوصف بوصفها كل من نزل بساحتها، فتكون بذلك قوة متحدة تجابه المشاكل الخارجية، أو ربما جعلتها قوتها تغزو غيرها من التجمعات، كما هو متعارف عليه في سائر أطراف الصحراء الكبرى، مثال ذلك قبيلة الغنائمة القاطنة واد الساورة من ولاية بشار، وقبائل التوارق في أقاصي الجنوب الشرقي بالصحراء الكبرى، وقبيلة الرقيبات في غرب الصحراء الكبرى، بل نجد المجتمع التواتي خليطاً من فئات عدة وينسب مختلفة وفق هرم ترتيبي محدّداته ثابتة متعارف عليها في سائر نواحي إقليم توات.

وكما أسست القبيلة أو الأسرة عدد أكبر من القصور أو القصبات تكون لكلمة اتحاد جماعتها وزناً واعتباراً في جميع نواحي الوسط الجغرافي القريبة إليه، وربما تعدّت هيبته الحدود القريبة إلى البعيدة.

ب. ترجمة المؤلف: مولده ونشأته وتعلمه: مؤلف هذه النوازل هو الشيخ القاضي محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن أبي زيد، يلقب بالبلبالي، وكنيته أبو فارس<sup>10</sup> كانت ولادته ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر الله شوال، عام تسعين ومائة وألف (1190هـ/1776م) وُلد مع أخت له في حمل واحد<sup>11</sup>.

ولد بقرية ملوكة وهي القرية التي أسسها أجداده بعد انتقالهم إليها من أدغا إحدى قصور مقاطعة تبي، يعتبر قصر أدغا المستقر الثالث لأسرة المؤلف بتوات، انتقلوا إليه من بودة والتي تعتبر المحطة

الثانية لهم بتوات، والتي انتقلوا إليها من تساييت؛ التي وردو عليها من تبلبالة؛ البلدة الواقعة بالجنوب الغربي من ولاية بشار حاليا، ورجوع أصولهم لهذه البلدة سبب تلقيب أسرة المؤلف بلقب البلباليين. نشأ المؤلف بقرية ملوكة<sup>12</sup> التي كانت مهذا علميا ومركزا قضائيا، وتعلم بها على أيدي علمائها، وتعلم على أيدي علماء القرى القريبة منها كقصر بودة وغيرها، ترعرع بين عيني والده الفقيه القاضي، في بيئة علمية ذات قيم وشيم أخلاقية، فانطبعت نفسيته على ما ساد أسرته ومجتمعه من عادات سليمة وقيم اجتماعية راقية، قال أحمد الحبيب واصفا نشأته في مقدمة الغنية: كان ممن جانب من لدن نشأته طريق الهوى<sup>13</sup>. كان ذاهمة ومثابرة وجدّ واجتهاد في الطلب قال عنه تلميذه أحمد الحبيب معبرا عن ذلك: له رغبة في التّعلم والتّعليم<sup>14</sup>.

نال المؤلف إجازات وشهادات من شيوخ عدة دلّت على تمكّنه وتفوّقه؛ منهم: والده الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي الملقب بسيد الحاج، والذي كان مولده ليلة عرفة عام 1155هـ/ 1742م؛ قال عنه الشيخ أحمد الحبيب البلبالي فيما قدم به للغنية: ولادته كانت ليلة عرفة عام خمسة وخمسين ومائة وألف، ولذلك سمي بسيدي الحاج كما هو العادة في تسمية من ولد ليلة عرفة ببلادنا بهذا الاسم<sup>15</sup>.

نشأ والد المؤلف ببلده المذكور، وهي الوسط العلمي الذي ترعرع في أحضانها، ظهرت عليه سيما النّجابة والفهم والنبوغ منذ صباه، حفظ القرآن الكريم وقرأ متون النحو الفقه حتى أنه درس المختصر الفقهي لخليل قبل بلوغه، جالس العلماء المعاصرين له في توات، لم تعرف له رحلة علمية خارج توات، مارس التدريس ومهمة الإفتاء والوعظ والخطابة، تولى منصب قضاء الجماعة بالديار التواتية بعد وفاة قاضي توات القاضي عبد الحق بن عبد الكريم البكري عام 1210هـ/ 1795م، من أجلّ آثاره وأعظمها كونه صاحب فكرة مشروع جمع النوازل والفتاوى الواقعة بإقليم توات، ويعد بذلك رائد المرحلة الأولى من هذا المشروع العلمي الفقهي القضائي الجليل النفع، فبدأ بجمعها هو ومؤلفها الفعلي ابنه الشيخ محمد عبد العزيز. أعظم شيوخ والد المؤلف أبو زيد عبد الرحمن بن عمر المعروف بالتتلائي التواتي المتوفي بمصر أثناء عودته من الحج سنة 1189هـ/ 1775م، توفي الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي والد المؤلف؛ بين العشاءين بعد صلاة المغرب وقبل صلاة العشاء من ليلة يوم الاثنين السابع من جمادى الثانية من عام 1244هـ/ 1828م، ودفن في صبيحتها بمقبرة الولي الصالح أبي القاسم بن أحمد بن أبي زيد البلبالي<sup>16</sup> بقصر ملوكة.

ومن الشيوخ الذين تتلمذ الشيخ محمد عبد العزيز على أيديهم وتحصّل على إجازتهم العلمية الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر التتلائي<sup>17</sup>، العالم المفتي، ولد سنة 1151هـ/ 1738م بتنان وأخذ عن

والده ورحل إلى سجلماسة فأخذ عن عالمها الشيخ أبي العباس الهلالي، له فتاوى كثيرة في كتاب الغنية وهو المقصود فيها بالإين، أصيب بالعمى في آخر عمره، ولذلك له فتاوى من إملائه، توفي في صفر سنة 1233هـ/1817م.

ومن الشيوخ الذين أجازو المؤلف؛ الشيخ أبو العباس أحمد زروق بن سيدي محمد بن موسى البداوي الجعفري، يعتبر الشيخ زروق البداوي أحد أقران وزملاء والد المؤلف الشيخ سيد الحاج، تزامن وتزامن معه أثناء تتلمذه على الشيخ الونقالي، يقول في الغنية: وسيدي أحمد زروق هذا، هو ممن قرأ على الشيخ العالم العلامة، الولي الصالح، المكاشف بالغيوب، المشهور بالفتح الرياني، سيدي محمد فتحا الونقالي<sup>18</sup>.

ويعتبر الشيخ زروق البداوي أحد علماء توات وشعرائها وأدبائها في هذه الآونة، قال عنه في الغنية: وان سيدي أحمد زروق هذا فقيهاً، حافظاً أديباً غاية، له في الشعر دواوين، كان في إجادة النظم أعجوبة، ونفس سامعه لحسنه مسلوبة<sup>19</sup>.

آثار المؤلف ومهامه: أعظم آثار الشيخ نوازل غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل، التي تعتبر من أكبر النوازل في الصحراء الكبرى في العصر الحديث، وللشيخ مراسلات عديدة مع فقهاء وعلماء المنطقة، تضمنت الغنية كثيرا منها، وبعضها مبعثر في أوراق تحتوي عليها خزائن توات وصناديق الأسر<sup>20</sup>. وله كذلك قصائد شعرية وأنظمة علمية في جل المجالات وشق الأعراس منها: قصيدة في الشعر المقلوب. - نظم المسائل التي يستحق بها المحبّس عليه غلة الحبس. - منظومة فقهية مطلعها: مسائل يلغى الشرط فيها سوى العقد، وغيرها.

تصدر الشيخ محمد عبد العزيز لمهام التدريس والإفتاء والقضاء، تتلمذ على يديه الكثير من العلماء ونالوا من عنده الاجازات والشهادات قال سيدي عبد العزيز سيد امير: وقام مقام أبيه في التدريس<sup>21</sup>، كان ذلك بموطنه قصر ملوكة، فاشتهر ذكره وذاع صيته، وقصده الطلبة من جميع مناطق الإقليم التواتي<sup>22</sup>، فمن تلامذته: إبنه الشيخ محمد البكري، والذي تعلم على يد والده المؤلف، ومنحه إجازة في جميع ما أجاز فيه أشياخه بشرطه ووصيته<sup>23</sup>.

ومن تلامذته أيضا: الشيخ أبو العباس أحمد الحبيب بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن الحاج علي بن أحمد بن أبي زيد بن بلقاسم البلبلي أصلا، الأنصاري نسباً، يجتمع نسبه بالشيخ ووالده سيد الحاج في أحمد بن أبي زيد بن بلقاسم البلبلي<sup>24</sup>، لم يتعرّض أصحاب التراجم لمولده ونشأته الأولى؛ إلا أنه يمكن أن يكون تاريخ

ميلاده في مطلع القرن الثالث عشر. له تلاميذ عدّة يعدّون من مشاهير أعلام توات وأصحاب المهام البارزة فيها، رتب الغنية على ترتيب أبواب الفقه في مختصر خليل وغيره من مصنفات الفقه المالكي. ومن تلامذته أيضاً: الشيخ أبو المواهب أمحمد بن أحمد البداوي بن محمد المحضي بن عبد الكريم بن البكري، ولد بتمنطيط سنة 1228هـ/ 1715م. فقيه علامة حجة حافظ محقق، جالس الجهابذة الفحول، تولى خطابة جامع أولاد علي بن موسى، تصدر للتدريس والفتوى له تقايد نفيسة<sup>25</sup> عمل مدرسا ومفتيا وخطيبا، رتب نوازل الغنية البلبالية، وتوفي في عنفوان شبابه وقبل أن يتزوج وهو في طريقه إلى الحج، بين تديكلت وغدامس 1261هـ/ 1845م<sup>26</sup>. وغيرهما.

تقلّد الشيخ محمد عبد العزيز مهمة القضاء بعد وفاة والده، وله العديد من المناظرات والمساجلات العلمية والمشاركات التأليفية من أجلها هذه النوازل التي تعتبر أكبر نوازل في الصحراء الكبرى، وأكثرها تنوعا. وفاته رحمه الله والثناء عليه: توفي الشيخ محمد عبد العزيز بن سيد الحاج البلبالي قُرب طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من جمادى الأولى من عام 1261هـ/ 1845م بملوكة، ودفن بها، وعلى قبره قبة<sup>27</sup>، توفي رحمه الله وعمره 71 سنة، وكان ممّن شهد للشيخ محمد عبد العزيز بالعلم؛ والده الشيخ سيدي الحاج البلبالي وأثنى عليه، ولقّبه في صغره سيوييه، إذ كان في كل فن يقابله ويساويه، ويحاوره في القضايا ويحاذيه، كان رضي الله عنه عالما عاملا، ورعا زاهدا، أديبا مُفلقا، وشاعرا محققا<sup>28</sup>. وقال في جوهره المعاني: الشيخ الإمام، علم الأعلام، شيخ الدائرة الكبرى، وحامل لواء المحجة الغراء، إمام العارفين، حرر من نقول المذهب ما إلى ترجيحه مرجع الأئمة، أطبق من بعده من علماء الصحراء على قبول أقواله، كان له القدم الراسخ في سائر العلوم ببيان وبديع ومنطق ومفهوم، له في تبين الحق سطوة عمرية، وشهامة علوية، استنارت بوجوده الأرض، ولهجت بذكره في الطول والعرض، برع في المنقول والمعقول، وقمع بطول باعه جهابذة الفحول، وكان آية من آيات الدهر، دائم البشر، واقف الفكر، سديد الرأي<sup>29</sup>، ويقول في الدرّة الفاخرة: أبو المفاخر العلية، والمآثر السنية، كان عالما في فنون، انتهت إليه الرياسة من البلاد الشاسعة فصار إمام زمانه<sup>30</sup>، فرحمه الله ورضي عنه.

ج. نوازل الغنية وقيمتها وأهميتها العلمية: من خلال محتويات مخطوط نوازل غنية المقتصد السائل في ما حل بتوات من القضايا والمسائل؛ والذي تناول في كل باب من أبواب الفقه مسائل ووقائع نزلت بتوات وأجوبة العلماء عليها، من باب الطهارة والصلاة وسائر أبواب العبادات وأبواب الأحوال الشخصية والاجتماعية وأبواب

المعاملات المرتبطة ارتباطا وثيقا بقضايا المجتمع والاقتصاد، فلا يخفى إذن أن الغنية البلبالية تعتبر وبجدارة مدونة تاريخ توات الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، فمادتها الخام التي هي عبارة عن أجوبة وفتاوى وأقضية فقهاء وعلماء وقضاة توات، وأسئلة ونوازل ساكنة توات خلال ما يقارب القرنين من الزمن؛ أشارت إلى مواضيع حضارية وتاريخية في شتى مجالات الحضارة تخص إقليم توات بما احتوته هذه النوازل من : معطيات تخصّ الجانب الثقافي والحركة العلمية في توات. -معطيات تمسّ الجانب الإقتصادي، حيث أشارت النوازل من خلالها إلى قاعدة اقتصاد توات (الفقارة + الفلاحة) وجلّ المعاملات والعُمُلات والسَّلَع التي كانت تحرك أسواق توات. -معطيات تخصّ الجانب الاجتماعي حيث تلمح إلى مكونات مجتمع توات وشرائحه، ومختلف أشكال العلاقات بين أطرافه، وقضايا أمنه واستقراره، وعليه تعد بحق إذن نوازل غنية المقتصد السائل فيما حلّ بتوت من قضايا والمسائل، مصدرها فقهاء وقضاة وتاريخيا، جمع زيادة على ما تضمنته سجلات شوري القاضي عبد الحق البكري؛ فتاوى المؤلف ووالده وما يتعدى الخمسة والعشرين عالما وفقها من علماء توات وقضاة، عاشوا خلال القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين، الموافقين للقرنين السابع والثامن عشر الميلاديين، وزيادة على ذلك الكثير من فتاوى وأحكام علماء مذهبنا المالكي مشرقا ومغربا على العموم، وبعض علماء وقضاة دول جنوب الصحراء الكبرى والبيئات المجاورة لتوات كفقهاء قرى واد السّاورَة وسجلماسة على الخصوص، فتنوّعت بذلك معطياته الخصبة وأتسعت فضاءاته.

#### مبحث تمهيدي:

مسوّغات تواجد نظام الجماعة بتوات وضرورته الحضارية: أول ما يعتبر داعيا لتواجد نظام الجماعة هو ما تقرّر من طرف علماء المنطقة ومفتيها خاصة، وعلماء مذهبنا المالكي عامة، فمن المقرر لديهم أن كلّ بلد لا سلطان فيه أو فيه سلطان يضيّع الحدود أو سلطان غير عدل، فعدول الموضع وأهل العلم يقومون مقام السلطان<sup>31</sup>، قال أبو عمران الفاسي في هذا الصدد: أحكام الجماعة الذين تمتدّ إليهم الأمور عند عدم السلطان، نافذ منها كل ما جرى على الصواب والسّداد<sup>32</sup>، وورد في نوازل الزجلّاي التواتي: أن جماعة العدول في البلد النائية عن السلطان حيث يتعدّر الإنهاء إليه؛ تقوم مقامه في كل حكم من الحدود والقصاص<sup>33</sup>.

وتوات من هذا النوع من البلدان؛ إذ يقول التّنلاني معبرا عن غياب الحاكم وانعدامه بتوات أثناء إجابته عن مسألة نزاع، وقّع هذا النزاع بسبب فتح الأبواب جديدة لبيت بسور من أسوار القصر، وقد عارض في إحداها البعض، ونشب النزاع بين أطراف القضية؛ فقال: ثم أين من يمنعه في موضع لاحاكم فيه<sup>34</sup>، ومما يدل على خلو

البلاد من سلطة تنظم شؤونه ما قاله المجيب في مضمون جواب في الغنية البلبلية جاء فيه: سئل عن بلد لا قاض به ولا عدول وفيه يتيم، فاجتمع أهل الحل والعقد مهم وقدموا عليه، فهل يمضي تقديمهم؟ فكان مما أجيب به عن سؤالهم؛ بأن تقديمهم عليه ماض إذ لا يترك مهملًا لعدم وجود العدول، ففعل الجماعة وإن كانوا غير عدول. في بلادنا هذه العارية من الحكام المهتلين بالأمور مما ينبغي ألا يختلف في إرضائه، لأن العلماء نصوا على أن من فعل فعلاً لورفع إلى الحاكم لم يزد عليه فيه قولان، وهذا في بلاد لا تخلوا من الحكام فكيف ببلادنا هذه! <sup>35</sup> فقوله: في بلادنا هذه العارية من الحكام المهتلين بالأمور دليل على الفراغ السلطوي في توات، ويدل على غياب الحاكم كذلك ما قاله التتلافي في ترجمته لشيخه القاضي أبي حفص عمر الأكبر حيث قال: انقاد معظم الناس لحكمه من غير وجود حاكم يُجبرهم عليه بل هبة من الله تعالى، إلا نفرًا قليلين منهم ممن لهم سطوة وأشمتازًا أولًا؛ ثم رجع إليه صاغراً <sup>36</sup>.

ولبيئات المجاورة لتوات نفس الوضع وهذا ما يتضح في صورة عقد تقديم جماعة أهل الحل والعقد بالبلاد الساورية المجاورة لتوات لسيد عبد الله بن الشيخ على رقايم وفيه أسامي الضمّان من جماعة الحل والعقد ونص التقديم: اتفق وتوافق الجميع المباركون من بلاد قرزيم إلى بلاد ألميه على الخير والسداد ... وجعلوا السيد المتبرك به الولي الصالح سيدي عبد الله بن الشيخ هو المقدم على رقايم يتبعونه سرا وجهرًا ... أوائل ذي القعدة عام 1090هـ/ 1679م <sup>37</sup>، ومما وصف به الشيخ محمد الخليفة الكنتي أوضاع مجتمع من المجتمعات المجاورة لتوات كذلك، ولها تقريبا نفس أوصاف توات الجغرافية والاجتماعية والسياسية، إذ يقول واصفا وضع الحسبة أو وضعية أهل الحل والعقد بنواحي قرى ومدن السودان الغربي: غالب المتصنّرين بهذه البلاد السائبة البعيدة عن بسطة يد السلطان ومن تحته من النواب الخارجة عن نظرهم إنما هو بحكم التغلب <sup>38</sup>.

وبسبب خلّو البلاد من أهل الحل والعقد، ولضرورة تواجد هذه الهيئة الشرعية والحضارية، دعى الشيخ محمد الخليفة الكنتي العلماء وغيرهم ممن ساعدتهم الأسباب لملء هذا الفراغ بقوله: على كل من يسّر الله له أسباب الدعوة، وزين في قلبه وظائف الحسبة، وعرج به في معارج الإمرة في هذه البلاد السائبة؛ بذل جهده بإخلاص النية. من أجل التقدّم والتصنّر لتنظيم شؤون المجتمع التي من أهمها. حمل الظالم الفاجر على الإذعان لأحكام الله <sup>39</sup>، ومما وصف به بلده كذلك؛ قوله: هذه البلاد السائبة التي أهلها ما بين ظالم مسرف شحيح، ومسلم مستضعف مهين، أو طالب علم مسترذل مسكين <sup>40</sup>. من هذا يتّضح لنا ما ميّز توات والبيئات المجاورة لها في هذا المجال الحضاري الهام.

فبعد إذن انعدام تواجد سلطة بقصر من قصور توات أو قرية من قرراها أو لأي تجمّع بشري كيف ما كان اسمه أو محله الجغرافي؛ أحد أهم أسباب الفوضى واختلاف الرأي بين سكانها، من صور ذلك ما جاء في نازلة سئل عنها الشيخ التتلائي أن أناسا مجتمعين في قرية مرابطين أو مساكين وعوّام، تلك القرية في غاية التفريط وتعذر عليهم إصلاحها. ويرجع سبب تعذر إصلاحها إلى عدم تقدم عدولها للقيام بهذا الدور لسبب أو لآخر<sup>41</sup>، ومن مظاهر الفوضى بتوات بسبب انعدام السلطة؛ ما جاء في مسألة دين عرضت على الشيخ التتلائي، وُصِف فيها الدائن أن له سطوة، وأنه كان يأخذ الناس بالظلم، ولا يقدر عليه أحد أن يتعرض له، حتى أنه قد استرقّ بعض الأحرار، وكان يمسك الأرسام بعد استيفاء ما فيها<sup>42</sup>.

ومن المسلم به منطقيًا أنه لا قوام لأي مجتمع بشري بدون نظام، يقول ابن خلدون: والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران<sup>43</sup>، فكان أمرًا لزمًا أن يكون في الأمصار والبلدان منظمون ومدبرون لكافة شؤون الناس، وكما تقدم أن واحات توات وما جاورها من بلدان الصحراء الكبرى. تمتاز بموقع جغرافي خاص منحها استقلالية في تسيير أمورها، ذلك ان النفوذ الفعلي للسلط المركزية لم يطلها إلا في فترات قليلة وقصيرة<sup>44</sup>، ويعدّ غياب سلطة مركزية بها أمرًا جعلها تتداول بين هيمنة الرحل والسلط المركزية<sup>45</sup>، فكانت بذلك منطقة توات طليعة القرن 19 الميلادي سائبة. بل وقبله بكثير بناء على ما تقدم سرده. لا تعرف نظامًا ولا تؤدي جباية<sup>46</sup>، وبلاد السببية أو البلاد السائبة كما عرفها الشيخ محمد الخليفة الكنتي هي البلاد الخالية من سلطان أو أمير أو رئيس خير، يدفع من ظلم الظلمة وجور الجورة وعدوان العادين فهي مهملّة غير خاضعة لسلطة مركزية تسوسها<sup>47</sup>.

فكان ما تقدم ذكره من أهم المسوغات التي قدّمت على سكان كل قصر من قصور أقاليم توات أفرادًا من كبارها وأعيانها لسياسة أمرها وتسيير شؤونها، وتخليص المجتمعات التواتية من الهلاك وفساد العمران، وحمايتهم من كل تهديد داخلي أو خارجي يمس الاستقرار، وهذا النوع من التنظيمات السياسية أشار إليه ابن خلدون بقوله: وان لم يكن في المصر ملك؛ فلا بدّ فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقين، وإلا انتقض عمرانه<sup>48</sup>.

وكذلك ما فرضته الظروف الطبيعية وأخطار هجومات الرحل على المستقرين بالواحات. كان سببا. للتجمع في وحدات سكنية مغلقة (القصور) هدفها الدفاع عن أنفسهم وحماية مزارعهم<sup>49</sup>، وأخذت هذه الوحدات طابع مدن صغيرة توفر عددا من الخدمات الاجتماعية، وأعطت في نفس الوقت هيكلًا سياسيًا لتصريف أمور ساكنة القصر<sup>50</sup>، فتأسست بكل قصر من هذه القصور جماعة تسيير أمور سكانه، وقد يكون على رأس هذه الجماعة شيخ مقدم عليهم يركبه الجميع.

### الإطار المفاهيمي والشكلي للموضوع:

1. تعريفات وإسقاطات: الحديث عن مفهوم الجماعة وسلطتها بتوات؛ هو الحديث عن هيئة أهل الحل والعقد في إحدى أشكالها، ومصطلح أهل الحل والعقد هو مصطلح متعارف عليه في فني السياسة والنظم في الحضارة الإسلامية، فالجماعة بتوات شكل من أشكال هيئة الحل والعقد السائدة في سائر بلدان العالم الإسلامي ولون من ألوان الحسبة التي تعتبر في الإسلام واسطة بين القضاء وأحكام المظالم<sup>51</sup>، وهو ما يطابق مفهوم الجماعة.

وتعريف الفقهاء لهيئة أهل الحل والعقد، والتي يعد نظام الجماعة شكلاً من أشكالها كما يلي: هم ذوو الشوكة والسطوة والرأي والتدبير في البلاد<sup>52</sup>، وهذا المفهوم بالذات ينطبق على هيئة نظام الجماعة بتوات، حيث يباشر ذوو الشوكة من أهل قرى وقصور توات وأصحاب السطوة من أهل السبب والفضل، من ذوي الجاه والحسب والعشيرة، توجيه الرأي العام وإصدار القرارات وتسيير شؤون العامة، معوضين بذلك غياب السلطة ذات المفهوم والشكل الرسمي، التي تتواجد في الأمصار والمدن الكبرى، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: أما المدن والأمصار فعنوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة، فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان، وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم، بما وقّر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة<sup>53</sup>، وعلى أساس الشطر الآخر من هذه النظرية الخلدونية ننظر لنظام الجماعة كأحد أشكال السلطة في الحضارة الإسلامية.

ومما تجب الإشارة إليه؛ أنه لا يتأتى لأي فرد من أفراد المجتمع أن يكون من ذوي الرأي والتدبير في توات، ولأن المهمة أصعب والدور ذا أهمية، أفق العلماء في الغنية بأن المراد بالجماعة العدول لا ما يزعمه كثير من أنهم العوام<sup>54</sup>، وأفق في الغنية كذلك في نازلة جماعة قامت بما هو من مهام القاضي؛ هل يمضي حكمهم أم لا؟ فأجاب موضحاً لشرائط الجماعة التي تمضي أحكامها بقوله: وبعد فالجماعة المذكورة إن كانوا من أفضل أهل بلدهم في دينهم وعقلهم فإنهم يقومون مقام القاضي في بلد لا قاضي به أو فيه وهو غير عدل فتمضى معاوضتهم<sup>55</sup>، فحسب فتاوى الغنية أن الجماعة ذات الدور الحضاري في توات ينبغي أن يكون الفرد فيها عدلاً، حسن السيرة معروف بالصالح والحكمة، ذا حسب وجاه وأسبقية وفضل، ومكانة اجتماعية لها حسابها داخل مجتمعه، لا مطعن فيه من أي ناحية من النواحي، وعلى هذا الأساس كان يتم اختيار ممثلي المجتمع التواتي وأهل الحل والعقد فيه، أو ما يصطلح عليه في اللسان أو اللهجة التواتية بأجماعه.

فتشكلت الجماعة التي هي أساس التنظيم الاجتماعي في قصور توات والمجتمعات الصحراوية من مجموعة أشخاص، يتولى الكبار فيها تسيير شؤون القصر، والأشخاص الكبار هم أشخاص كبار في السن ومعروفين بإخلاصهم وأملأهم وديهم<sup>56</sup>، وقد تتكون الجماعة التواتية من رؤساء القبائل الذين جُعلوا أهلاً للحل والربط<sup>57</sup>. وتعدّ الجماعة المجلس الداخلي الذي ينظم ويسير شؤون السكان، ورؤساء شيوخ القبائل والشرفاء هم أصحاب الرئاسة المطلقة، إذ يمثلون السلطة العليا في تنظيم المجتمع التواتي<sup>58</sup>، فالجماعة بتوات إذن بمثابة الجهاز التنفيذي للمقاطعة، وهذه الوظيفة من أقدم الوظائف لدى التواتيين<sup>59</sup>، وعموماً فإن مصطلح الجماعة يأتي في المصادر الوقتية بمعنى مجلس ممثلي الفخذ أو الفرقة أو القبيلة<sup>60</sup>، وما في معناها من جماعات القصور و القرى والأحياء وغيرها، ويعتبر كل عضو في الجماعة نائباً عن كل فرد من أفراد أسرته أو فرعه أو قبيلته، إذ في كل حالة امتناع فرد من الأفراد من أداء ما حكم به عليه فإن نائبه في الجماعة يؤدي عنه<sup>61</sup>.

حاول أعيان قرى وقصور توات تنظيم مجتمعهم وتجنبيه كل أشكال الفوضى التي كان بإمكانهم القضاء عليها، أو على الأقل التقليل من النتائج السلبية لما لا يمكن التخلص منه، من خلال هذه التشكيلة التي سطرت وتبنت نظاماً يحقق ذلك، فكانت محاولتهم جدية في تجسيد ما يرمي إليه مصطلح نظام في علوم السياسة والنظم؛ حيث يطلق هذا المصطلح على الظواهر والعلاقات والبنى الاجتماعية، بما يفيد تبلورها وانتظامها في قواعد ومصالح وقيم واتجاهات متميزة<sup>62</sup>.

2. آليات نظام الجماعة وقوانين: للجماعة أساليب وطرق تنتهجها وقوانين والزامات تستخدمها، من أجل تسهيل أداء مهامها، و بما أن الجماعة تضطلع بكل أعباء القصر فمن الطرق المعتمدة في التسيير أنها تجتمع كلما دعت الضرورة لذلك<sup>63</sup>، فلا تراكم عليها بذلك المهام ولا القضايا، ومن طرق معالجتها للقضايا؛ أنه عند اجتماع الجماعة كل واحد يعطي رأيه وعند التوافق تتفرق<sup>64</sup>. ومن الأسس المعتمدة لدى الجماعة، أنها حكمت البلاد بنصوص الشرع الثابتة، وانتهجت إسقاط الضرائب والإتاوات عن الناس<sup>65</sup>.

وقد كان جلّ اعتماد الجماعة في إصدار الأحكام على العرف السائد لديهم الذي يعتبر بمثابة قانون ومرجع أساسي لتسيير أمور القصر<sup>66</sup>، ويشترط لاعتماد هذه الأعراف والعادات في التنظيم أن توافق الشرع ولا تخالفه، ويعتبر أهم مبدأ لدى الجماعة في الأعراف عمومًا هو مبدأ النّصاف أو الغرامة التي تفرض على الجاني أو المخالف، والنّصاف عبارة عن غرامة تقدم عيناً أو نقداً، بصورة تناسب مع الجنحة أو الجرم<sup>67</sup>. ولم يكن للجماعة أن تفعل هذا القانون إلا بإقرار من العلماء لهم، فقد جاء في نوازل الزجلوي التواتي أن الشيخ القاضي سيدي عمر بن

عبد القادر التتلاني قاضي توات في عصره؛ أنه استحسن الأخذ بالعقوبة بالمال في عموم بلاد توات في الأشرار من الناس. وفسّر ذلك ويرّره في نفس الفتوى بقوله: لأهم لا يرتدعون إلا بذلك<sup>68</sup>.

ومن المبادئ الشرعية المنتهجة لدى قضاء الجماعة في الفصل وإصدار الأحكام القسم أو اليمين، فعادة ما يؤدي المتهم اليمين لنفي التهمة أو إبعاد الشبهة عن نفسه، والقسم في حد ذاته يحمل بُعداً أخلاقياً ودينياً يلزم الشخص إزاء الجماعة، بينما يترك القصاص للقدر، حيث يتورع الناس تلقائياً عن أداء اليمين في حالة الكذب، للشعور بأن القدرة الإلهية تنتقم بصورة عاجلة أو آجلة من الشخص الذي يؤدي يمين الغموس<sup>69</sup>، وضمت الغنية الكثير من القضايا والنزاعات التي حكم فيها على المتخاصمين أو أحدهما أداء اليمين، وكان كثيراً ما يطلبها صاحب الحق، ويلزم المتهم أو المدعى عليه بتأديتها بين الجماعة أو على المصحف أو في مكان مقدس.

ومن أساليب مجلس الجماعة في فرض سلطته؛ توليه تنفيذ قراراته بنفسه، ولا رجوع في الأحكام التي يصدرها<sup>70</sup>، وجعلوا من اختصاصات مجلس الجماعة محاكمة المتهمين وتوقيع العقوبات عليهم، ومن هذه العقوبات التي تعدّ في حد ذاتها من الآليات المعتمدة في حماية نظام الجماعة؛ الربط في جذع النخلة والجلد أو السجن وتصل للنفي والإعدام<sup>71</sup>، وبالاعتماد أساساً على مصادر التشريع، وعلى ما تقدم ذكره من سائر الأساليب والطرق ومراعاة العادات والتقاليد؛ نجح التواتيون في تنظيم مجتمعهم. فنعموا بحياة هادئة تفرغوا خلالها لبناء اقتصادهم<sup>72</sup>.

3. أعوان هيئة نظام الجماعة. ونظراً لما كانت تقتضيه الحياة اليومية للسكان في الواحات من تنظيم ومتابعة، ولزيادة عدد السكان في القصور استلزم الأمر تعيين أعوان لتنظيم وتصريف مصالح السكان اليومية<sup>73</sup>، حيث استعان أهل الحل والعقد بأعوان ذوي مهام مختلفة<sup>74</sup>، يعملون تحت إشرافهم، وكان اختيارهم على أساس أهليتهم في المجال الذي يستعملون فيه، وقد أوضحت الكثير من نوازل وفتاوى الغنية البلبالية عن مسمياتهم، من أهم هؤلاء الأعوان:

1. كيال الماء: ولأنّ الفقارة أهم نقاط المجال الاقتصادي بتوات، كان لكل ناحية من نواحي توات، ولكل جماعة قصر أو مجموعة قصور كيال يكيل مياه فقاقيرهم، وهو رجل خبير بأسرار الماء يجيد الحساب، مكلف بعمليات تقسيم الماء بمساعدة أرباب الفقارة، يقوم بقياس ماء الفقارة عند كل بيع وشراء أو اقتراض للمياه، ووجوده ضروري عند إجراء أي عملية تتعلق بالفقارة<sup>75</sup>، يكيل الكيال ماء الفقارة في بداية كل موسم

للتعرف على الزيادة والنقصان، الجميع يثق في نزاهته وحكمه ويحظى باحترامهم، ويخصص له سنويا مقابل كحصّة من الثمار والحبوب نظير الجهود التي يبذلها، أو يكون هذا المقابل من غير الغلة<sup>76</sup>.

2. شاهد الزمام: وهو الشخص الذي يكلف بمراقبة عملية الكيل، وتوكل له مهمة كتابة الزمام وعادة ما يكون إماما، يحرق شاهد الزمام زمام الفقارة الذي هو عبارة عن سجل يبين تاريخ بداية الفقارة وعدد المساهمين فيها، ويدون فيه عمليات البيع والشراء والاقتراض للماء<sup>77</sup>.

3. الوقّاف: رجل أمن مكلف بمراقبة أبواب القرية، وله ممارسة وتجربة في الوصول إلى معرفة من حلّ من الغرباء في قصره<sup>78</sup>، ومن مهام الوقّاف مصاحبة الغرباء لدار الضيافة، وإخبار الأسر التي لها نوبة الضيافة، وله مسؤوليات ومهام كثيرة<sup>79</sup>.

4. البراح: يقصد بالبراح المنادي للناس والمبلغ لهم كل أمر جديد ذا أهمية، دوره يتمثل في التجوال في أزقة معروفة، يبلّغ السكان من خلال نداءاته بأعلى صوته ما أمر بتبليغه لهم من قبل الجماعة، مما يخص أمور أهمهم وصالح شأنهم كالإعلان عن الحضور لاجتماع من أجل إقامة أو تجديد الزرب أو ترميم سور من أسوار القصر أو إصلاح عطب لحق بالفقارة أو الساقية مثلا، أو معلنا عن زواج أو جنازة أو غيرهما، وعن طريق البراح يعلم جميع سكان القصر كل ما جرى أو سيجري فيها من أحداث هامة وأخبار وأوامر<sup>80</sup>.

5. القوّم: يعتمد السكان في الكثير من صنوف المعاملات الاقتصادية على القوّم، وتتمثل مهمته في تقييم وقياس ما يباع من عقار أو غيره، وقد ورد ذكره في الكثير من مسائل الغنية البلبلية، فله الحضور في بيع فقارة مثلا أو جنان أو سلعة من السلع، حيث يكلف بتقدير قيمتها وثنمها، ويطمئن الناس في كل ناحية لرأي القوّمين وأهل المعرفة المعروفين بذلك، من أسامي القوّم في الغنية: العرافين وأهل البصر أو البصيرة.

6. وكيل المسجد: تتمثل مهمته في الإشراف على أحباس وأموال وممتلكات المساجد والمدارس القرآنية، والحفاظ عليها وصرفها أو مراقبة صرفها في وجوه الصرف المحددة لها، كما يشرف على مراسيم الزواج وترتيب المناسبات الدينية والاحتفالات المتعارف عليها في قصره، لا يوجد وكيل المسجد إلا في المدن والقصور الكبيرة<sup>81</sup>.

7. الشهود: يستعمل الجماعة الشهود في إثبات الحقوق وفي فض النزاعات، ورد ذكرهم في الكثير من مسائل وفتاوى الغنية البلبلية، وأوضح أحد المجيبين في الغنية أن الشهود الملتزم قبول شهادتهم؛ العدول الذين لا قدح فمهم، وأن يكونوا أفضل من غيرهم دينا، وليس بالبلد من هو أفضل منهم، يتوقف قبول

شهاداتهم على تزكية الجرم الغفير من جنسهم أو عدلان من أهل بلدهم أو جيرانهم بأنهم لا يكذبون<sup>82</sup>، وإن أقرّ الشاهد بعداوته للمشهود عليه سقطت شهادته، ويقدر في الشاهد تحمل الشهادة لبعض الناس دون بعض ان امتنع بلا عنر<sup>83</sup>، وورد في سؤال بالغنية وصف شاهد بالمبرز<sup>84</sup>، وفيه دليل على أن الشهود أصناف ودرجات، وغالبا ما يأخذ الشهود أجرا مقابل شهادتهم<sup>85</sup>.

ومما كتب به محمد بن عبد الرحمن التنلاني في هذا الصدد؛ القاضي سيد الحاج البلبلي والد مؤلف الغنية ناصحا له بعد توليه القضاء بعد تقديم: فحيث قلّدك الله خطة القضاء كرها فلا بد لك من اختبار رجال الشهود، إذ هم الذين تبني عليهم الحقوق، وبذلك يرتفع الكثير من النزاع والشغب بين هؤلاء الذين يريدون من القضاة والشهود إتباع شهواتهم، فمن عرفته بالعدالة وجب عليك الأخذ بشهادته ومن عرفته بخلافها نبذته وأرحت الخصم من التعب فيه، ومن التبس عليك أمره طلبت تزكيتته وراقب الله تعالى ولا عليك في لومة لائم والسلام<sup>86</sup>.

#### أدوار الجماعة ومهامها الحضارية.

1.فيما يخص قضايا استقرار المجتمع وأمنه: بذلت الجماعة كل ما بوسعها من أجل أمن مجتمعيها واستقراره، وهذا مسعى من إحدى أهم مساعي الجماعة، ومما ورد بهذا الشأن في الغنية: أن أهل قرية تعرضوا لزعة أمهم واستقرارهم الاقتصادي، وكانت في ناحية من نواحي حصونهم ثغرة يمكن مهاجمة قريتهم عبرها، ولم يندفع عنهم هذا الإضرار إلا بإغرام مال من أجل سدّ هذه الثغرة، وكان ذلك بعد أن تعرضوا لإحراق زروعهم ونخلهم، ولزاحمة الجيش لهم الذين كادوا يتسورون عليهم الحصون، فاتفق رأي جماعة هذه القرية على بيع بعض العقار لتوفير المال من أجل تحقيق هذه المصلحة، ويتمثل هذا العقار في رحبة مقابلة للموضع الذي يتوقع منه التسور، فشهدوا بأن بقاءها براح كساد للبلد وبيعها لمن يحصنها صلاح، فبيعت ودُفعت قيمتها في المال الذي وقع فداء لرقاقهم وأموالهم واستفتوا في ذلك، وكان هذا ما تضمنته شورى للشيخ أبي زيد جاء فيها: أبو زيد إن أهل بلدنا لما نزل من أمر الله تعالى من إحراق زروعهم ونخلهم ومزاحمة الجيش عليهم حق كاد أن يتسور عليهم حصونهم، وما اندفع عنهم ذلك إلا بإغرام مال، فكان جوابه رحمه الله بإجازة بيعها بشرط: أن يتفق أهل الحل والعقد على بيع تلك البقعة، والحالة أنها مجهولة المالك كما قلت، وصرف ثمنها في تلك النازلة<sup>87</sup>، فتعتبر بذلك مساعي أعيان هذه القرية جهودا حضارية حافظت على استقرار وأمن هذا المجتمع.

ومن صور دور الجماعة في دفع الضرر الذي يمس بالأمن والأمان بالمجتمعات التواتية؛ ما جاء في إحدى مسائل الضرر، في سؤال وجهه الشيخ سيد الحاج البلبالي لشيخه الزجلوي قال فيه بعد تقديم: فما تقول سيدي في أناس شرذمة قليلين، أرادوا أن يبنوا قسبة في أرضهم بقرب قرية كبيرة، أهل رأيها منهم مطالبون بالتبعات الظلمية ومتوقعون الخوف، ولأن الباني المذكور لا قوة له على الدفع عن نفسه إن أتاه آت ولا عن قصبته التي أراد بناءها، ولأنه إن ترك وما أراد من البناء أدى إلى تفريق جماعة القرية الكبيرة بأن يفعل كل من له قوة على البناء مثل فعله، وذلك مما يضر برئيسها الذي ترجع إليه كلمتها، ويخاف أيضا من وقوع الضرر والفتنة من تكثير البناء، لأنها إن بنيت قريبة جدا من أصل من ذكر يخاف عليهم من عدم انتفاعهم بأصلهم إن دخلها عدو. فأجابه الشيخ الزجلوي عن ذلك بتفصيل<sup>88</sup>.

وأسباب اعتراض رئيس هذه القرية الكبيرة وجماعتها بناء هذه القسبة الجديدة بالقرب من قريتهم، كما أوضحت ذلك تفاصيل هذه النازلة؛ كانت كما يلي:

أن هذا الباني للقسبة لا قوة له على الدفع عن نفسه إن أتاه آت ولا عن قصبته، وهم في الأصل مطالبون بتبعات ظلمية ومتوقعون الخوف.

توقعهم أن هذا البناء يؤدي إلى تفريق جماعة القرية الكبيرة بأن يفعل كل من له القوة على البناء مثل فعله، وفي التفرق ضعف واحتمال وقوع الفتن والأضرار بعد كثرة البناء، وهذا البناء يؤدي إلى الإضرار برئيس القرية الذي ترجع إليه كلمتها.

توقع عدم انتفاعهم بأصولهم (بسائيتهم) والحاق الأضرار بها وبهم، بسبب مجاورة هذه القسبة لها. هذه الأسباب. وبمجرد توقعها واحتمالها؛ دعت رئيس هذه القرية وجماعته للبحث عن فتوى وحكم يحق لهم على أساسها منع من أراد بناء هذه القسبة الجديدة، وهذا كله حفاظاً منهم على أمن مجتمعهم واستقراره، وذلك بالحفاظ على اتحادهم وتأمين مصادر أقواتهم وتعزيز أمنهم برفضهم مجاورة الضعفاء وأهل التبعات.

ومما جاء مبرز الدور الجماعة في صد العدوان والحفاظ على استقرار مجتمعاتهم، إهتمامهم بما يعطى مداراة ومهادنة للمعتدين من قبائل الغزو والأعراب قبل نزولهم، مثال ذلك ما جاء في رسم مؤرخ بأواسط شوال من سنة 1145هـ/1732م تضمنته الغنية البلبالية، حرره وأصدر ما فيه من أحكام الفقيه الأجل البركة سيدي عمر بن سيدي الحاج عبد القادر: أنه تحاكم لديه أرباب زاوية مراقن ومتولي أمورها وهم فلان وفلان ممن لهم كلام في الجماعة في أمر ما يعطونه للصادر والوارد من الظلمة<sup>89</sup>، فبناء على هذه الاستشارة والتحاكم من قبل الجماعة

للشيخ واهتمامهم بأمر مداراة الظلمة بما يُقدم لهم من طعام أو أموال إتقاء شرهم؛ والتي تعتبر طريقة من الطرق المعتمدة لديهم في صدّ العدوان وتحاشي الأضرار، وهذه الطريقة أفضى بجوارها فقهاء المالكية قديما وحديثا. يتبين لنا حرص وسهر الجماعة على استقرار أمن مجتمعهم وتجنبيه المخاطر.

ومن صور دفع الجماعة وأعيانها الخطر عن المجتمع، ما ورد في نازلة أن جماعة أُلزمت بدفع مغارم وإتاوات، ففَرَّ البعض ودفع البعض، وبقي الغائب واليتيم والهارب، فدفع عنهم شيخهم واشترى الدين عليهم، على أن يرجع بذلك عليهم، ولم يُقدِّم شيخهم على ذلك إلا خوفا من الفساد والهلاك واغتصاب الجميع، لاسيما إن كانت القرية تساوي أكثر من ذلك وأضعافه<sup>90</sup>، ويعود عليهم بذلك بحسب انتفاعهم بالأمن على أنفسهم ومواشيهم وما حصل لهم نفع بدفع الضرر عن غلاتهم<sup>91</sup>، فلولا تصرف شيخهم الحكيم وسعيه من أجل جماعته، لكانت هذه النازلة التي دعت إلى فرار بعضهم سببا في تشتتهم والقضاء عليهم، ونفس الصورة وقعت لجماعة قصر مع قبيلة الغنامنة، حيث سئل أبو زيد عن قرية وردتها الغنامنة، فدفع لهم كبيرها عروضها ودراهم من عند بعض أهلها<sup>92</sup>، على أن يعود عليهم بذلك في التمر، كل ذلك سعيا من أعيان القصور والقرى من أجل تماسك المجتمعات، يقول في الغنية ملزما الجماعة القيام بهذا الدور: الجماعة نائبة عن أهل البلد في مداراة من يخافونه على أموالهم من الظلمة بضيافتهم، شئت الجماعة ذلك أم أبت، وممن أفضى بذلك عمر الأكبر التتلائي أهل بلد البركة<sup>93</sup>.

وقد أُلزم الشيخ الزجلوي الجماعة في إحدى الفتاوى<sup>94</sup> من أجل المحافظة على استقرار قصبته، بفض نزاع وقع بين أبناء عمومة يسكنون قصبته واحدة كاد أن يصفع استقرارها، وهذا كما ورد في الجواب سدا لباب الفتنة والفوضى وحفظا للأمن، فقد جاء في النازلة أن هذا النزاع كاد أن يكون سببا في وقوع الهرج بين أبناء العمومة والساكين هذه القصبته.

ومن جملة مهام الجماعة من أجل الحفاظ على الاستقرار والأمن وأهمها غاية، هي مهمة تنصيب القضاة وتقديم من هو أهل لذلك من علماء توات، فقد جاء في تعريف الزجلوي بالشيخ سيدي عمر الأكبر التتلائي في نوازله قوله: فقيه توات في وقته، قدم للقضاء بها من طرف الجماعة<sup>95</sup>، وهذا يعد من أهم الأدوار الحضارية التي قامت بها الجماعة بتوات، فالجماعة لم تقم بهذا الأمر إلا من أجل الحفاظ على استقرار الوضع بتوات وحرصا على تجنب السكان الفوضى المهلكة، دليل ذلك ما قاله عنه تلميذه التتلائي: لما كثرت الخصومات بتوات ألجوا عليه في تولية الفصل بين أهل الخصومات ولم يرتضوا غيره، وخاف من الهرج والفتن فقبل ذلك وأحسن السيرة وأظهر العدل<sup>96</sup>،

ولا خلاف في شرعية ما قامت به الجماعة، ففي جواب للعلامة عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي الشنقيطي بأن الانتصاب للقضاء يكون من جهة السلطان أو جماعة المسلمين في بلد لا سلطان فيه، أو يتعذر الوصول منه إلى السلطان<sup>97</sup>، وبغض النظر عن دور الجماعة في تنصيب القضاة، فإن الجماعة في حد ذاتها تعتبر مؤسسة قضائية تفصل في قضايا متعددة، كمخالفة عرف الجماعة والجنح والجرائم<sup>98</sup>.

2. فيما يخص قضايا المجتمع والأسر ونزاعات الحقوق والتعاملات: نجد للجماعة بتواتر حضورا في القضايا الأسرية كالترويج وغيره، فمثلا من المعروف في شريعتنا الإسلامية وعلى أساس منهنا المالكي الذي يسود منطقة توات؛ أنه لا يمكن للمرأة أن تزوج نفسها بدون ولي من أهلها، إذ هو من يتولى أمر العقد عليها وقبض صداقها، وعند انعدام ولي الأمر لأي سبب من الأسباب يتولى الحاكم أو القاضي هذه المهمة، وقد تصدّت الجماعة بقصور توات لهذه المهمة لغياب القاضي بها أحيانا والحاكم على وجه أعم، حيث نجد أن الجماعة زوّجت اليتيمة التي لا ولي لها من غاب عنها ولها، من ذلك أن وليا لسبب أو لآخر امتنع من تزويج وليته فكان للجماعة تدخل في أمرها وتزويجها وذلك بحضوره، وهذا ما ورد في الغنية، فقد وجه سؤال للشيخ سيدي محمد الزجلوي عن امرأة شريفة القدر ثيب، زوّجها جماعة المحل وعدوله من خاطها، بحضور أخيها الذي امتنع عن تزويجها حتى يتفصل مع خطيها في منازعة كانت بينهما، وأخوها الآخر بعيد عنها بنحو مسافة يومين، فأجاز هذا الزواج ونهى عن فسخه<sup>99</sup>، فترويج الجماعة لهذه المرأة أمرا ضروريا محافظة مهم على الحقوق، وصيانة لها من الإضاعة لأسباب شخصية وواهية، ولم يخالفهم الشيخ في ذلك حيث أجاز فعلهم ونهى عن فسح هذا العقد، ولا يخفى ما في ذلك من إبعاد للمفاسد الاجتماعية وصيانة المجتمع، وحضور الجماعة القوي للتصدي للمصالح الخاصة على حساب حقوق الناس، وورد في نوازل الزجلوي، في تزويج اليتيمة التي بعد عنها أقاربها، وتعيين من يقبض لها صداقها إن لم يكن لها حاضن؛ أن جماعة المسلمين تقوم لها في ذلك مقام الأهل، وتعيّن من يقبضه لها<sup>100</sup>، وسئل عن هذه المسألة بعينها الشيخ أبو حفص عمر بن عبد القادر، وفي السؤال الذي وجه إليه تفسير القريب الغائب بالعم، فأجاب الشيخ بعد أن قامت الجماعة بتزويجها بأن النكاح صحيح، وليس للعم فسخه، وجاء فيها كذلك أن وكالة وتزويج المرأة التي قريبا غائب ولايتها للحاكم أو من يقوم مقامه<sup>101</sup>، وفي المعيار أنه: إذا لم يكن بالبلد حاكم ولا قاض زوّج صالحا وعدول البلد المرأة التي أولياؤها غيب<sup>102</sup>.

وللجماعة دور حضاري مهم من ناحية التدخل بالاستشارة والإشهاد والمتابعة في حل قضايا الميراث والديون والصّدقات والمعاضات والنيابة فيها عن أحد أطرافها، حيث تنوب الجماعة في توات عن كل من

لم يستطع تمثيل نفسه فيما يخص مصالحته وفائدته، كالنيابة في مصالح الورثة وقضايا الوصايا وكافة الحقوق المالية، من أمثلة ذلك:

أن الجماعة بعد حضورها ومعاينتها شهدت وأقرت لرجل تصدقت أمه على أولاده بثلث تركتها، فقام هذا الرجل بمعاوضة هذا الثلث المتصدق به على أولاده في غيره، فلم يكن ليمضي أمرا كهذا بغياب الجماعة وإقرارهم بأن ما قام به هذا الرجل فيه صلاح لأبنائه ولا ضرر عليهم منه، وهذا ما يدل على الحضور القوي للجماعة حتى فيما يخص الأمر وشؤونهم الخاصة، جاء هذا في سؤال وجه للشيخ أبي زيد التتلاي هل تصح هذه المعاوضة أم لا؟ فأجاب بصحتها إن وقعت كما ذكر<sup>103</sup>، فالجماعة بهذا صانت حقوق أولاد هذا الرجل وقامت بالنيابة عنهم في مصالحهم.

وجاء في سؤال آخر أيضا أن جماعة عاوضت أصل ثلث هل تقوم مقام القاضي؟ فأمضى المجيب فعلمهم إذا كانت هذه الجماعة المذكورة من أفضل أهل بلدهم في دينهم وعقلهم، فإنهم يقومون مقام القاضي في بلد لا قاضي به<sup>104</sup>.

ومن ذلك ما ثبت في مرافعة من القاضي للشيخ أبي زيد التتلاي، في قضية أخوين تنازعا في تركة أبيهما، وكان للجماعة حضور في قضيتهما، مما جاء في هذه المرافعة ما حصله: أن مولاي العربي شكى أخاه المذكور عند جماعة أولاد سيدي حم بن الحاج وأنه منعه من حقه، فأمرت الجماعة الشاكي منهما أن يوكل من يحاسب أخاه فوكل شخصين، باسمهما. بموافقة الجماعة المذكورة وقاضيا السيد محمد بن عبد المؤمن وحضورهم، فحاسباه على جميع ما تخلف أبوهما، فترتب لمولاي العربي بعد استقصاء المحاسبة على أخيه كذا وكذا فدفعه إليه فيما يحتاج إليه من أصل وغيره<sup>105</sup>. فثبت بهذا أن الجماعة مقصد المظلومين؛ وهذا ما يظهر من تقدم الشاكي للجماعة، وتولت الجماعة متابعة القضية، حيث طُلب من الشاكي تعيين وكيل يحاسب أخاه، فوكل شخصين، وبموافقة الجماعة وقاضي الجماعة باشر هذان الوكيلان محاسبة المشتكى منه في جميع ما بيده من التركة، وبعد الإستقصاء عين المحاسبين نصيب الشاكي. من خلال ما تقدم يتضح انه لولا ثقل كفة الشاكي بالجماعة لنهب حقه، ولولا نفوذ سلطة الجماعة لما كان لها تعيين من يحاسب المشتكى منه، ولما سئل على المحاسبين محاسبة المشتكى منه.

ومن مهامها كذلك تقديم الوكلاء على اليتامى وعلى قضاء ديون الميت، كما في نازلة رجل توفي وترك ديننا في ذمته، وترك أولادا صغارا وكبارا، وقامت جماعته والقاضي بتقديم رجل على اليتامى وعلى فصال المدانين<sup>106</sup>.

وقال في الغنية البلبلية مبيّنًا لدور الجماعة في النظر في صلاح الأيتام، في مضمن جواب سئل فيه عن بلد لا قاض به ولا عدول وفيه يتيم، فاجتمع أهل الحل والعقد منهم وقدموا عليه، فهل يمضي تقديمهم؟ فكان مما أجاب به بأن تقديمهم عليه ماض فلا يترك مهملًا لعدم وجود العدول؛ إذ نظر غير العدول في نحو هذه المسألة لعدم العدول الذين يهتبلون بهذه الأمور ماض<sup>107</sup>، وهذا حرصًا من المفتي والجماعة على مصلحة الأيتام والضعفاء.

وجاء في جواب للشيخ التلاني؛ أن محبسًا ترك ابنة صغيرة (يتيمة) ولم يجعل عليها وصيًا، هل لأخها التقدّم على مصالحتها دون تقديم له عليها؟ فأجاب: أنه لا سبيل لأخها على ذلك بغير تقديم، وأوجب على الجماعة إذا لم يكن لهم قاض أن يقوموا على الابنة من ينظر في مصالحتها ويقبض نصيبها من غلة الحبس<sup>108</sup>.

وقال الشيخ التلاني في أحد أجوبته في قضية بين شركاء في جنان (بستان) يريد بعضهم بيع نصيبه، أن الذي يجبر الذي أبى من الشركاء على البيع القاضي إن كان؛ وإلا فعُدول البلد يقومون مقامه والله أعلم<sup>109</sup>، فالإزام المفتي التلاني للجماعة جبر من أبى البيع من الشركاء توسيعًا للدائرة مهام الجماعة وثقة في جانبها.

ومن مهامها كذلك بيع الأراضي الدائرة من أجل إحيائها، هذا ما جاء في نازلة سئل عنها الشيخ أبي الأنوار التلاني؛ جاء فيها أن جماعة البلد قومت لرجل من نفس البلد أرضًا لأجل عمارتها فحضر فيها فقارة وبنى فيها الأجنحة<sup>110</sup>، وجاء في حكم إعمار أرض دائرة أنه لا يصح تملكها إلا بإقطاع من السلطان، أو ممن قام مقامه عند فقده وهم عدول البلد، وباستئذان القاضي وعرفاء البلد وأهل البصيرة منهم<sup>111</sup>، ونجد في هذا المنحى في الغنية امثال جماعة بوزان (أحد قصور بلدية تبيي) ما أمر به المفتي والقاضي، حيث قوّموا للبركة السيد محمد الطيب ما يريد عمارته وسوق الماء إليه من الأرض البيضاء قرب قرية بزّان، وكان ذلك بعرفاء وتقويم عدل وشهود، بعد التأكد من أنه لا ضرر فيها بالتضييق على أهل البلد في موقف دواهم وطرح أحمالها، ولا يخفى أن الجماعة في هذا معوضة لغياب السلطة قائمة مع القاضي مقامها، ووقع على هذه الفتوى عدة علماء منهم محمد بن عبد الرحمن بن عمر والرقادي وغيرهما<sup>112</sup>.

ومن مهام الجماعة كذلك إنشاء المؤسسات الدينية في القصر والسهر على المحافظة عليها وترميمها إذا دعى الأمر لذلك، حيث ألزم الشيخ الزجلوي الجماعة إصلاح المساجد، لما سئل عن إصلاح الجامع على من يجب؟ فقال على الجماعة<sup>113</sup>. ومما يدل على اتساع أدوار سلطة الجماعة بالتدخل في كل ما يكون صلاحًا للفرد والأسر والمجتمع، السؤال الذي وجهه للشيخ محمد بن عبد الرحمن التلاني، حيث

سأله السائل عن حبس زاوية اندرس وفرط فيه أهله هل على الجماعة القيام فيه بترعه منهم<sup>114</sup>، ومن مهامها كذلك التعاقد مع الأئمة والمعلمين ومحاسبهم وإخراجهم إذا أثبتت عليهم ما يوجب إخراجهم، وقد احتوت الغنية البلبالية مسائل عرضت على العلماء والقضاة تتضمن خلافات بين الجماعة ومن تشارطوا معه من الأئمة والمعلمين، مثالها قضية جماعة قصر وينة مع إمامهم<sup>115</sup> وغيرها.

وقد أزم العلماء والقضاة في توات الجماعة في الكثير من المرات على السهر من أجل تطبيق ما أصدره من أحكام وعقوبات، واطمأنوا لجانبها في الفصل في النزاعات، والقيام بالشهادة وتركية الشهود، ولذلك نجد أن الشيخ القاضي سيدي عمر بن عبد القادر التنازي وهو ببلد لا حاكم فيه لم يستحسن الأخذ بالعقوبة بالمال في عموم بلاد توات، خصوصاً في الأشرار من الناس التي كانت كثيراً ما تتكرر<sup>116</sup>، إلا اطمئناناً منه على أن بجانبه نظام يسهر على العمل بما استحسنته.

تقييم نظام الجماعة بتوات.

أولاً: الإيجابيات والسلبيات: يعتبر كل ما تقدم من المهام التي قامت بها الجماعة والأدوار الحضارية التي أدتها؛ إيجابيات في سجل تاريخها، ومما يعتبر كذلك ويحسب للجماعة ويعد أحد أهم إيجابياتها استعانتها برجال الفتوى من الفقهاء والعلماء من أجل الاستشارة وأخذ الرأي الحكيم الصالح<sup>117</sup>، وقد ورد في الغنية الكثير من المراسلات والانشغالات التي وجهها أعيان وجماعات قصور وقرى توات للعلماء الفقهاء، مثاله ما قام به جماعة أهل ملوكة لما أرادوا أن يعرضوا جناحنا. أي بستانا. حبس للمسجد، في جناح آخر رأوا أنه يعود بالفائدة على المسجد أفضل من الأول، واستأذنا في ذلك العالم القاضي البكري فأذن لهم، ثم كاتهم بما نصه: إلى جماعة أهل ملوكة السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد؛ فالجنان الذي أذنا لكم في معاوضته للمسجد بما هو خير منه وأعود نفعاً في ملوكة وهو ببودة، بلغنا أن جنان الزاوية ببودة أحسن من الجنان الذي عوض فيه، وإن تخالفتم في ذلك فاحضروا للشرع فيظهر ما يجب<sup>118</sup>، وفي أمره لهم بالقدوم لمجلس القضاء إذا تخالفوا دليل على طواعيتهم لأمر العالم القاضي البكري، وتعد كذلك هذه الطواعية من الجماعة للعالم من أهم إيجابيات هذا النظام.

ومما ورد كذلك في هذا الصدد: ليعلم الواقف عليه أن أعيان جماعة طلبوا منا ومن الأستاذ السيد الحاج عبد الرحمن بن محمد التامرتي الحكم بين السيد محمد بن عمر وباب أحمد بن عبد الرحمن الويناويين، فيما قام به الثاني على الأول من الأصل بعد أن طال نزاعهما<sup>119</sup>، حيث طالب أعيان هذه

الجماعة من التلاني عبد الرحمن بن عمر والأستاذ المذكور التدخل في فض هذا النزاع، وكما لنظام الجماعة إيجابيات؛ فإن له سلبيات، ومما يحسب على نظام الجماعة بتواتر ويعد من سلبياته، تسلط بعض أعضائها على الناس والتعدي عليهم، وذلك استغلالاً منهم للمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها، فنجد في بعض القضايا التي تضمنتها الغنية حالات لهذه الظاهرة منها:

أن جماعة قصر من القصور تعدت على مال الغائب ودفعوه في ما لا يجب عليه، ولا يخفى ما في هذا من الظلم، وأوضح المجيب عن هذه النازلة: أن ما فعله الجماعة من التمالؤ على أخذ مال الغائب ودفعه في غير ما يجب عليه شرعاً محض ظلم وتعدٍّ، إذ لا تجب الضيافة على الغائب ولا على الأيتام ومن في معانهم من ضعفة النساء<sup>120</sup>، فوصف العالم فعل الجماعة بأنه محض ظلم، فيُعد هذا التصرف من السلبيات التي تحسب على الجماعة.

ومن ذلك ما قامت به الجماعة المذكورة، من أنهم أقدموا على تقسيم أصول الزاوية، وهذا دون الرجوع لعالم ولا لمفتي، وهذا تصرف في الملكية العامة لأمالك الزاوية، ولا تخفى سلبية هذا التصرف حيث بين المجيب ذلك بقوله: وما فعلوه من قسم أصول الزاوية غير صواب، إذ فيه من المفاسد ما لا يخفى، وإنما الواجب تقديم رجل ثقة عليها وصرفها في الوجه الذي من أجله وقع التحبيس<sup>121</sup>.

ومن ذلك ما حدث في قضية رجل توفي وعليه دين، لما قام غريمه بطلب حقه من تركته، سلمت له الجماعة إحدى عقاراته من غير أن ينادى على هذا البيع ولا حكم في ذلك حاكم<sup>122</sup>، ولأن هذا البيع الذي عقدته الجماعة يفترق إلى شروط غابت فيه كالإنشاد والنداء مع استقصاء القيمة؛ قام أولاد المدين المتوفي لما كبروا على الجماعة؛ يريدون رد ما بيع عن والدهم، وبهذا توجي تفاصيل النازلة أن تصرف الجماعة غير صائب وفيه ثغرات، فتحت عليهم باب المحاسبة والمتابعة لأن ذلك يعدّ تعدياً على ميراث الضعفة من النسوة والصبيان اليتامى.

وجاء في مسألة امرأة طلب منها فلان مالا ظلماً، لكونه شيخاً في بلده مقدماً، فهربت منه لزاوية مكثت فيها مدة مختفية، فلما علم بها جاءها وطلب منها أن تدفع له ما لزم أصلها بزعمه ذلك، فباعته حظها من الحبس مكرهة ولم تقبض ثمنها ولا علمت قدر ما باعت، وكتب في العقد أنها طائعة بالبيع<sup>123</sup>. أي غير مكرهة عليه. فلا يخفى استغلال هذا الرجل تقدّمه في بلده وكونه من أعيانها.

### ثانيا: وصف نظام سلطة الجماعة بتوات من طرف المؤرخين والباحثين:

من بين من تحدثوا عن نظام الجماعة بتوات الرحالة البرتغالي المجهول صاحب وصف المغرب، حيث لاحظ مدى إحكام النظام التواتي فوصفه بقوله: ان النظام السياسي في توات كان أحكم وأعلى منه في معظم المجتمعات الإسلامية بإفريقيا<sup>124</sup> ، وقال محمد اعفيف معلقا على نظام الجماعة بتوات: كيفية تسيير أمور الواحات التواتية كانت بصورة تهر الملاحظ بضبط أمورها الداخلية وإحكام علاقاتها في غياب السلطة المركزية<sup>125</sup> ، ويقول فرج محمود فرج: رغم بساطة هذا الجهاز إلا أنه كان يضمن لهم حياة منتظمة وشعورا بالأمن والطمأنينة على حياتهم وزراعتهم وتجارتهم لضمان استمرار الحياة وسط هذه الصحراء الموحشة<sup>126</sup>.

### خاتمة:

بناء على ما تقدم؛ نخلص إلى أن نظام الجماعة بتوات أدى دورا حضاريا بالغ الأهمية، مسّ معظم جوانب الحياة ومجالات الحضارة، وقد ضمت الكثير من نوازل الغنية البلبالية، وأبرزت مضامين هذه المسائل والأحكام والفتاوى؛ صورة ودور نظام الجماعة التواتية، ومسوّغات وأهمية تواجده، حيث أعربت هذه النوازل عن أدوار نظام الجماعة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مؤرّخة بذلك وموثّقة لأحد أهم النظم التي قامت عليها مجتمعات وتجمعات واحات الصحراء الكبرى في العصر الحديث.

فيظهر جليا لكل دارس مدقق لتاريخ توات ولكل مهتم بماضي هذا الاقليم أن للجماعة حضورا قويا في نحت الفقائر وما يتصل بقضايا الماء، وفي المسجد وما يتعلق بإنجازه أو ترميمه والإشراف على أحباسه وتأطيره وشؤون القائمين عليه، وفيما يخص قضايا المجتمع من ضيافة وترميم للزرب وفك العزلة عن حي من الأحياء، والفصل بين نزاعات الجيران في القصر أو في البساتين، والفصل في قضايا نزاعات البيوع والرهون والمعاضات والموايرث والحجر والديون وسائر التعاملات الاقتصادية، وقضايا الزواج وحقوق الأيتام والأرامل والضعفة، ولها الدور البارز في قضايا أمن واستقرار المجتمع وصد العدوان الخارجي، وإقامة القضاة والسهر على تطبيق ما أصدرت من أحكام، وتشبيد القصور وتحصينها وترميم حصونها، وتنظيم الشؤون والعلاقات بين سكان القصور بمختلف طبقاتهم، وتمثل الجماعة بتوات في كل ذلك دور القاضي والشاهد والراعي والمتابع، معتمدة في فرض سلطتها على ما رسخ في بيئتها من أعراف وعادات مبنية على الشرع القويم، صيغت هذه الأعراف على أساس قوانين واستعملت كآليات لضبط السير وضمان الاستقرار، مع استخدام الجماعة وفقا لاحتياجاتها أعوانا وذوي مهام مختلفة الميادين من مختلف شرائح المجتمع.

## الهوامش:

1. القصر: مصطلح يطلق على الوحدة السكنية بتوات؛ والقصر في مناطق الجنوب الغربي الجزائري، وهو قرية محصنة أو بالأحرى مجموعة سكنية مترابطة، ومتلاحمة فيما بينها يقطنها أفراد أو مجموعة عائلات موسعة كثير ما تنتهي إلى أصول عرقية واحدة وطبقات اجتماعية مشتركة، وقد تكون مختلفة، يحيط بهذه التكتلات سور مدعم بأبراج ركنية (في الزوايا)، وتتخلله مداخل، وقد تغلو بعض القصور من ذلك، ليعوض عنه بجدران البيوت، الخارجية لتشكل في النهاية ما يشبه السور يحيط بكل أرجاءها، تنسب القصور عادة إلى ولي صالح، باعتبار مؤسس أو صاحب الفصل في لم الشمل مثل سيدي عيسى وسيدي سليمان بن علي بأولاد أو ش أدرار. ثياقة الصديق، نمط العمارة القصورية و مراحل الاستيطان البشري بإقليم توات، مجموعة أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعة أدرار وجامعة تيارت، توات وحواضر المغرب الإسلامي، 14 أبريل 2009، جامعة أحمد دراية، أدرار، ص 104.
2. محمد الصالح حوتية، توات الموقع الجغرافي والأهمية التاريخية، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعة أدرار وجامعة تيارت: العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، 14 أبريل 2009، ص 24.
3. مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار علماء وصلحاء توات، مخطوط موجود بخزانة كوسام أدرار، و06.
4. عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر: بيروت، 1421هـ/2000م، ج6/ص78.
5. عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، المصدر السابق، ج07/ص77.
6. عبد العزيز الفشتلي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تج: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف: الرباط ص 73.
7. عبد الكريم طموز، تحقيق فهرس شيوخ عمر بن عبد القادر التتلافي (ت1152هـ)، رسالة ماجستير، إشراف: بوية مجاني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري-قسنطينة، 1430هـ/2010م، ص22.
8. عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات وأعلامها، من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر، ط2، دار الغرب: وهران 2007، ص33.
9. حوتية محمد الصالح، توات والأزواد، دار الكتاب العربي: الجزائر، ج1/ص48.
10. البليلي محمد عبد العزيز بن محمد، غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات من القضايا والمسائل، مقدمة أحمد الحبيب، مخطوط بخزانة بن عبد الكبير قصر المطارفة، أدرار، 1ظ.
11. نفسه، 2ظ.

- 12 . يقع هذا القصر الذي أسسه أجداد المؤلف غرب مدينة أدرار، يعتبر قصر ملوكة أحد قصور مقاطعة تبي قاعدة توات في العصر الحديث، وهو أحد أبرز قصورها، تحولت مقاطعة تبي إلى بلدية تبي التابعة إداريا لدائرة أدرار، يبعد قصر ملوكة عن عاصمة الولاية بـ 02 كم، يجاوره من جهة الغرب قصر ميمون.
- 13 . غنية المقتصد السائل، 1ظ.
- 14 . نفسه، 1و.
- 15 . غنية المقتصد السائل، 1و.
- 16 . نفسه، 3و.
- 17 . المهداوي عمر بن عبد القادر، الدرّة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد، قصر بأبعد الله، أدرار، 8و. وعبد العزيز سيد اعمر، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، دار هومه، 2002، ص 103.
- 18 . غنية المقتصد، 4ظ.
- 19 . نفسه، 5و.
- 20 . مراسلات الشيخ ومكاتبته محفوظة بخزانة الأسرة البلبالية، بملوكة، وكوسام، برينكان بتسايت، وزاوية مهدية، وزاوية مبدوي، وخزانة بن الوليد، وخزانة الشيخ بن الكبير، وخزانة البكريين، وخزانة انزجمير، وخزانة لمطرفة، و غيرها كثير جدا، ولدي بعضها مصورا.
- 21 . قطف الزهرات، ص 55. ومقاتي عبد الله ومبارك جعفري، معجم أعلام توات، منشورات الرياحين: الجزائر، ص 200.
- 22 . بن حسان أحمد، الشجرة المرجانية في التعريف بالأسرة البلبالية الركانية، ط 1، دار هومه: بوزريعة الجزائر، 2010م، ص 128.
- 23 . وثيقة إجازة في مجموع مرقم، خزانة الأنصار بآنزجمير، رقم الوثيقة 103.
- 24 . الدرّة الفاخرة، 7و، وقطف الزهرات، ص 63-64.
- 25 . التمنطيبي بن عبد الكريم محمد، جوهر المعاني فيمن ثبت لدي من علماء الألف الثاني، مخطوط، بخزانة كوسام، 9و.
- 26 . معجم أعلام توات، ص 112.
- 27 . جوهرة المعاني، 5و. والدرّة الفاخرة، 6و.
- 28 . الغنية البلبالية، 1ظ.
- 29 . جوهرة المعاني، 5ظ.
- 30 . الدرّة الفاخرة، 6و.

31. الونشريسي أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وجماعة، دار الغرب الإسلامي: بيروت، 1401هـ/1981م، ج10/ص102.
32. نفسه، ج10/ص103.
33. الزجلوي محمد العالم، نوازل الزجلوي، دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه، إعداد: محمد جرادي، إشراف: سعاد سطحي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، كلية أصول الدين والشريعة، 2010/2011م، ص344.
34. نفسه، ص 404.
35. غنية المقتصد، ظ317.
36. عبد الكريم طموز، المرجع نفسه، ص23.
37. عبد الله حمادي الإدريسي، صحراء وادي الساوره تاريخاً ومناقب وبطولات، ط1، دار بوسعادة للنشر والتوزيع، 2013، ج1/ص74.
38. حناني فردوس، محمد الخليفة الكنتي 12421179هـ/18261765م حياته وأثاره التاريخية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف بن نعمية عبد المجيد، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008.2009، ص100.
39. نفسه، ص100.
40. نفسه، ص100.
41. الغنية البلبالية، ظ154.
42. نفسه، و202.
43. عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي المغربي، المقدمة، نسخة محققة بإخراج جديد، دار الفكر: بيروت، 1424هـ/2004م، ص152.
44. محمد أعفيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية: الرباط، ص163.
45. نفسه، 163.
46. عبد الله حمادي الإدريسي، الفوات من تاريخ توات وما تاخمها من صحاري الجهات، ط1، 2010م، ص188.
47. حناني فردوس، نفسه، ص204.
48. ابن خلدون، المصدر السابق، ص155.
49. محمد أعفيف، المرجع نفسه، 167.
50. نفسه، 167.

51. حناني فردوس، المرجع نفسه، ص 100.
52. محمد قلعي وحامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفاثس للطباعة والنشر، ط2، 1408هـ-1988م، ص 95.
53. ابن خلدون، المصدر نفسه، ص 132.
54. الغنية البلبالية، و 124.
55. نفسه، و 321.
56. محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ج 2/ص 362.
57. بكري عبد الحميد، المرجع نفسه، ص 27.
58. دوبلي خديجة، طبقات المجتمع التواتي من خلال الهجرات البشرية في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، مجموعة أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعة أنار وجامعة تيارت، توات وحواضر المغرب الإسلامي، 14 أبريل 2009، جامعة أحمد دراية، أدرار، ص 357.
59. فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر 1977م، ص 26.
60. علي المحمدي، السلطة والمجتمع في المغرب نموذج آيت باعمران، ط1، دار تويقال للنشر: الدار البيضاء المغرب، 1989. ص 134.
61. محمد أعيف، نفسه، ص 171.
62. عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، مدير التحرير: ماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مطابع تكنوبرس الحديثة: بيروت، ج 6/ص 582.
63. محمد أعيف، المرجع نفسه، ص 171.
64. محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ج 2/ص 363.
65. بكري عبد الحميد، المرجع نفسه، ص 27.
66. محمد أعيف، نفسه، ص 187.
67. نفسه، ص 187.
68. نوازل الزجلوي، ص 355.
69. محمد أعيف، المرجع نفسه، ص 188.
70. فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص 29.
71. نفسه، ص 28.

72. نفسه، ص 52.
73. نفسه، ص 26.
74. حوتية محمد، المرجع السابق، ج 2/ص 363.
75. موساوي عربية، الفقارة بمنطقة توات وأثرها في حياة المجتمع، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف الأستاذ لعرج عبد العزيز، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، ص 243.
76. فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص 30. ودوبلي خديجة، المرجع نفسه، ص 358.
77. موساوي عربية، المرجع نفسه، ص 240، ص 243.
78. دوبلي خديجة، المرجع نفسه، ص 357.
79. فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص 30.
80. نفسه، ص 30.
81. نفسه، ص 30.
82. الغنية البلبالية، ط 326.
83. نفسه، ط 336، و 337.
84. نفسه، و 337.
85. نفسه، ط 317.
86. نفسه، ط 332.
87. نفسه، و 155.
88. نفسه، ط 155.
89. نفسه، ط 141.
90. نوازل الزجلوي، 352.
91. الغنية البلبالية، و 230.
92. نفسه، و 72.
93. نفسه، ط 239، ط 274.
94. نوازل الزجلوي، ص 403.
95. نفسه، ص 471.
96. عبد الكريم طموز، المرجع السابق، ص 23.
97. عبد الله حمادي الإدريسي، الفوات من تاريخ توات، ص 212.

- 
98. محمد اعفيف، المرجع نفسه، ص 187.  
99. الغنية البلبالية، و106.  
100. نوازل الزجلوي، 204.  
101. نفسه، ص 205.  
102. الونشريسي، المصدر نفسه، ج 10/ص 102.  
103. الغنية البلبالية، و71.  
104. نفسه، و321.  
105. نفسه، و119.  
106. نفسه، ظ 121.  
107. نفسه، ظ 317.  
108. نفسه، و276.  
109. نفسه، ظ 201.  
110. نوازل الزجلوي، ص 380.  
111. نفسه، ص 411.  
112. الغنية البلبالية، و235.  
113. نوازل الزجلوي، ص 168.  
114. الغنية البلبالية، و170.  
115. نفسه، و219 و222.  
116. نوازل الزجلوي، ص 355.  
117. دوبلي خديجة، المرجع نفسه، ص 357.  
118. الغنية البلبالية، ظ 312.  
119. نفسه، ظ 100.  
120. نفسه، ظ 140.  
121. نفسه، ظ 140.  
122. نفسه، ظ 123.  
123. نوازل الزجلوي، ص 237.  
124. دوبلي خديجة، المرجع نفسه، ص 357.

---

125. محمد اعقيف، المرجع نفسه، ص 163.

126. فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص 23.

.